توظيف الرمز الديني في الشعر الليبي المعاصر

* د. حسن موسى محمد بوسنينه

المستخلص: يعدّ الرمز الديني من التقنيات الغنية، التي وظّفها الشعراء الليبيون المعاصرون، في رسم الكثير من الصور الشعرية، وذلك يعود لما لهذه التقنية الفنية، من تأثيرٍ فعالٍ في تثوير النص الإبداعي، من خلال تكثيف هذه الدلالات بمساحة لفظية ضيقة ومحددة، مع توافر البعد الدلالي الذي ينفتح على تشظي التأويل، إذ سجّل الرمز الديني، حضورًا مائزًا في مساحتهم الشعرية، المنضوية تحت النمط الشعري، فأتّخذ عندهم مسالك شتى، ومثّل في شعرهم معادلًا موضوعيًا لتجربتهم الشعرية.

وقد وجد الشاعر الليبي في الرموز الدينية، رحابة وقدرة على استيعاب تجاربه الشعورية والفكرية، بالإضافة إلى قوة إيحائها وعمق تأثيرها في نفس المتلقي.

المقدمة:

يعدّ الرمز الديني من التقنيات الغنية، التي وظّفها الشعراء الليبيون، في رسم الكثير من الصور الشعرية، وذلك يعود لما لهذه التقنية من تأثيرٍ فعالٍ في تثوير النص الإبداعي، من خلال تكثيف هذه الدلالات بمساحة لفظية ضيقة ومحددة، مع توافر البعد الدلالي الذي ينفتح على تشظي التأويل.

ولعلّ من أبرز السمات التي وسم بها الشعر الليبي الحديث والمعاصر، ألا وهي سمة الرمز، فلقد اتّفق أغلب الدارسين على أنّ الرمز من أهم العناصر التي تسهم في تشكيل الصورة الشعرية، لما يكسبه من أبعاد فنية ودلالية، تتجلى من خلاله رؤية الشاعر الخاصة اتجاه الوجود، وهكذا يغدو الرمز عنصرًا هامًا في خطابات الشعر الليبي المعاصر، وصفة من صفات الإبداع الشعري، فقد أولى الشعراء له اهتمامًا كبيرًا، بعد أن وجدوا في الرمز أداة تعبيرية مناسبة، تمنحهم الحرية وتمكنهم من التعبير عن الذات، وعن التجربة الشعرية.

كذا غدا الرمز الرائد الأول لدى الشعراء الليبيين المعاصرين، وشكلًا جديدًا يفرغون فيه مشاعرهم، وقالبًا معبرًا عن موقف فكري أو سياسي أو اجتماعي، وهذا ما أحاول تبيانه من توظيف الرمز الديني في الشعر الليبي المعاصر، الذي عدّ وسيلة جديدة، وتقنية حديثة في الأداء الشعري، أكسبت القصيدة بنية دلالية وفنية.

والمتأمل في الشعر الليبي المعاصر، يجد بلا شك ذلك التضمين الواضح للرموز الدينية، الذي أصبح تقنية يوظّفها الشاعر، في الكثير من المواقف، فيمنحها فضاءً شعريًا واسعًا، سخيًا بالإيحاءات والدلالات.

* عضو هيئة التدريس، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة إجدابيا

ولم يكن اختياري لهذا الموضوع وليد الصدفة، وإنّما كان منصبًا على خصائص الشعر الليبي المعاصر، ولعلّ أهمها وأبرزها ظاهرة الرمز التي شغلت حيزًا من الكتابات الشعرية، فاخترت الرمز الديني ، للنظر في التوظيف الفني الذي يسعى إليه الشعراء ، للتعبير عمّا تعذّر التعبير عنه بأسلوب مباشر.

من هذا المنطلق حاولت طرح جملة من التساؤلات منها: ماهية الرمز لغةً واصطلاحًا؟ كيف وظّف الشعراء الليبيون الرمز الديني في قصائدهم؟ كيف كانت تجربتهم الشعرية؟.

وقد تناول هذا البحث الذي وسم بتوظيف الرمز الديني في الشعر الليبي المعاصر: تعريف الرمز لغةً واصطلاحًا، ثمّ عرّجت على أهمية التوظيف الرمزي، وجمالية الرمز في تشكيل الصورة الشعرية، إذا كان نابعًا من حاجة القصيدة إلى تلك الرموز، ثمّ استقرأت نماذج شعرية لشعراء ليبيين، استخدموا الرمز الديني في قصائدهم، فتتبعت بعض هذه النماذج الشعرية، ثمّ ذيلت البحث بخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع.

لقد شكّل التراث الديني مصدرًا من أهم المصادر التي اتّكأ عليها الشعر الليبي المعاصر لتطوير أدواته التعبيرية، وإثراء طاقاته الإيحائية، وبناء صوره ورموزه الشعرية، ومن أجل تحقيق نوع من التواصل مع الجماهير التي تختزل ذاكرتها التاريخية، معطيات التراث وتتفاعل وجدانيًا مع مفرداته المتعددة، التي تشكّل جانبًا كبيرًا من تكوينها الفكري والنفسي.

الرمز في اللغة:

تطرّقت جلّ المعاجم العربية باختلاف أنواعها، لتحديد مفهوم الرمز، وحوى المعجم العربي معاني متنوعة للفظة: رمز، إذ نجد ابن منظور في لسان العرب يقول: " أنّ الرمز تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم اللفظ، من غير إبانة بصوت ، وإنّما هو إشارة بالشفتين". [1]

والرمز في اللغة ، كلّ ما أشرت إليه، ممّا يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين، فتقول : رمز يرمز رمزًا، والرمز والترميز في اللغة، يعنى الحزم والتحرك، وقيل الرمز مجاز نوعا ما يسعف الإنسان على فهم المثال بالإشارة إليه وتمثيله وتمويهه في آن واحد. [2]

ويقول الخليل عن الرمز أنّ الفعل رمُز يرمزُ، أي ينظم والرمز باللسان : الصوت الخفي، ويكون الرمز الإيماء بالحاجب بلا كلام، ويقال: الرمز: تحريك الشفتين. [3]

1 – لسان العرب، ابن منظور، مادة رمز ، م : 5، ص : 356 .

2 – المصدر نفسه ، ص : 357 .

3 – كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق : عبد السلام هارون ، ج : 2 ، مادة رمز .

ويعدّ قول الخليل تحديدًا أكثر دقة لمفهوم ومعنى الرمز.

ويرى ابن رشيق أنّ الرمز هو: "الإشارة في كلّ نوع من الكلام، لمحة دالة واختصارًا وتلويحًا يعرّف مجملًا، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه". [4]

ونجد ابن فارس في كتابه مقاييس اللغة يعرّف الرمز بقوله هو: "الراء والميم والزاء أصل واحد، يدل على حركة واضطراب، ويقال ضربه فما ارمأزّ ، أي ما تحرك، وارتمز أيضًا : تحرك". [5]

ويبتعد ابن فارس عن هذه الآراء، فالرمز عنده ليس الإشارة والإيماء، بل هو الحركة والاضطراب، ولعلّ هذه الحركة والاضطراب في جذر الكلمة إنّما جاءته من صفات الحروف التي يتكون منها. [6]

ويتّضح من تعريفات المعاجم اللغوية، أنّ الرمز يحمل معنى إيجابيًا، ويعنى الإيماء والإشارة والعلامة، ونستطيع القول أنّ هذا المعنى بشكل عام ورد في أكثر المعاجم.

وجاءت لفظة الرمز في القرآن الكريم، في قصة سيدنا زكريا – عليه السلام – : ﴿ **قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا** ﴾ . [7]

أي إيماء فقط ، يعني إشارة بنحو يدٍ أو رأسٍ، ومعناها : علامتك ألّا تستطيع التكلم ثلاثة أيام إلّا بالإشارة ، فحين منع زكريا – عليه السلام – من الكلام ، كان قادرًا على ذكر الله، ثم استثنى الرمز، والكلام المراد من الآية، إنّما هو النطق باللسان، لا الإعلام بما في النفس.

الرمز اصطلاحاً:

تتعرض عديد المصطلحات لكثير من التناقض والاضطراب والعمومية، ولا يبعد مفهوم الرمز عن هذه الإشكالية في تعريف المصطلح، وإن كان يصعب تعقب مفهوم الرمز في الحقل الأدبي، منذ تناوله على يد الفلاسفة اليونان، وتطوره حتى عصرنا الحاضر، بحيث يبدو أنّ الرمز الأدبي تعرّض لما تتعرّض له بعض المصطلحات أحيانًا، من النظر إليها بمقاييس ليست من طبيعتها. [8]

4 – العمدة ، ابن رشيق ، ج : 1 ، ص : 206 .

5 – مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ج : 2 ، ص : 214 .

6 – ينظر الرمز ودلالته في القصيدة العربية المعاصرة ، قراءة في الشكل ، خليل الحاوي أنموذجًا ، يوسفي سوهيله ، ص : 18 .

7 – القرآن الكريم ، سورة مريم ، الآية : 10 .

8 – ينظر الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، د. محمد فتوح أحمد ، ص : 32 – 37 .

والرمز له دور هام في الفكر الإنساني، فما من نشاط ذي بال من نشاطاته، إلّا والرمز لبّه وصميمه، سواء أكان نشاطًا دينيًا أو أدبيًا أو اجتماعيًا، حتى قيل أنّ العالم كله يتحدث من خلال الرمز. [9]

والرمز ليس أداة تقرير ومقابلة وانتخاب، فهو لا يقابل واقعًا بواقع أخر، فلا يفترض عليه، ولا يستعير منه، ولا يكنّي عليه، بل إنّه ينفذ في ضميره، وفي نواياه، ويطلع من قلب المادة الصماء، أرواح الحقائق الكامنة فيها. [10]

ومن ثمّ يعدّ الرمز وسيلة لتجاوز الواقع المادي إلى عالم الفكر والتجريد، واستخدام الرمز في الشعر، يعني العودة إلى جوهر الشعر وطبيعته الإيحائية، حيث لا يقف الرمز عند قدم الأشياء المادية لتصويرها، بل يتعداها لينقل التأثير الذي تتركه هذه الأشياء في النفس بعد أن يلتقطها الحس، فهو إذن لا يعبّر عنها بقدر ما يعبّر عن الأجواء الضبابية المبهمة التي تسربت إلى أعماق الذات المتفرعة المتباعدة الأصول والأطراف. [11]

والرمز الأدبي أو الشعري في معناه الخاص، إشارة حسّية مجازية لشيء لا يقع تحت الحواس، أي أنّ الرمز الشعري يتكون من مستويين: مستوى الصورة الحسّية التي تأخذ قالبًا للرمز، ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها، وحين يندمج المستويان نحصل على الرمز. [12]

ويتوقف نجاح هذا المنهج الرمزي، على قدرة الشاعر في المزج بين المستويين الحسّي والمعنوي، مزجًا تفنى فيه الحالة المعنوية التجريدية في المعطيات الحسّية، التي تتخذ رموزًا لها، حتى تفقد المعطيات الحسّية ماديتها، وتتحول إلى دلالات تجريدية، ومن ثمّ فإنّ الشاعر لا يستطيع الاستغناء عن أحد المستويين في خلق الرمز، أو أن يستخدم أحدهما في التعبير عن الآخر، كما أنّ المستوى الحرفي، أو الظاهر لا يسخّر بطريقة مصطنعة واضحة للتعبير عن معنى آخر، فالمعنى الثاني ينمو نموًا باطنيًا من المعنى الأول. [13]

فالرمز الشعري إذا هو: "أداة لغوية تحمل وظائف جمالية، عندما تسهم في تشكيل تجربة الشاعر على نحو مؤتلف مع مكونات النص الفني". [14]

وتتوزع هذه الأداة على ضروب من الأشكال اللغوية ، فهناك اللفظة المفردة ، والعبارة القصيرة ، " وأمّا ما وراء ذلك من أشكال، فهي تختلف فيما بينها، اتساعًا وامتدادًا، فكل واحد من الشعراء يعايش حالة أو موقفًا، ضمن شروط نفسية واجتماعية

9 – تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ، نعيم اليافي ، ص : 277 .
10 – الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي ، إيليا الحاوي ، ص : 142 .
11 – الرمزية والأدب العربي الحديث ، أنطوان غطاس كرم ، ص : 12 .
12 – الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي ، إيليا الحاوي ، ص : 159 .
13 – الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، د. محمد فتوح أحمد ، ص : 190 .
14 – تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ، نعيم اليافي ، ص : 287 .

وزمنية وفكرية، وهي تتفاعل وتعطي اللحظة المتوهجة في ومضات، أو اشتعال متصاعد، وتصل الصورة الرمزية درجة تكون مغطية فيها أبيات القصيدة إلا قليلًا فيها، إمّا على هيأة قصة أو حكاية ، تلتحم بالطرف الفكري أو الاجتماعي المعاصر للشاعر، أو تتجلى في مقاطع القصيدة ، فتظلّ ملامح الرمز مع كل مقطع أو محور".[15]

إنّ الرمز الشعري ليس قالبًا جاهزًا، أو نظامًا إشاريًا يتكرر بدلالته ومعناه ، في جميع النصوص، بل هو نتيجة لكل ممارسة شعرية جديدة، تطمح لأن تكون متفردة في أسلوبها ، وطريقتها، فالشاعر في أثناء عملية الإبداع، يصنع رموزه بطريقته الخاصة، ووفق ما تمليه عليه تجربته ورؤيته. "وطبيعة الرمز طبيعة غنية مثيرة" [16]، تضيف إلى السياق الذي يرد فيه رحابة وعمقًا، وتتسع ساحته "إلى حدّ استيعاب الدلالات المتقابلة أو المتناقضة" [17] ، والأكيد أنّ شعرية النص، تعود إلى قدرة الشاعر على تطويع الرمز وبعثه في حلة جديدة، ووفق سياق معين، يمزجه بالراهن، إذ لابدّ أن يكون توظيف الرمز توظيفًا فنّيًا ناضجًا، يتفق والتجربة الشعورية التي يعالجها المبدع لأنّه "مهما تكن الرموز التي يستخدمها الشاعر ضاربةً بجذورها في التاريخ ... لابدّ أن تكون مرتبطة بالحاضر، بالتجربة الحالية". [18] وبذلك تسهم في إثراء القصيدة ، وتعزيز مكانتها.

ويكون استخدام الرمز ناجحًا ، حين يتجاوز المدلول الفكري، أو الأيدلوجي المجرد، إلى اكتساب مدلول شعري أكثر ثراءً، وهو لا يكون كذلك، إلّا إذا كان تعبيرًا عن تجربة الشاعر، وكان مرتبطًا بسياق النص ارتباطًا حيويًا، وهذا ما أشار إليه عز الدين إسماعيل حين قال: "وفي تدبّرنا للرمز الشعري، ينبغي أن يدخل في تقديرنا، بعدان أساسيان هما: التجربة الشعرية الخاصة، والسياق الخاص، فالتجربة الشعرية بمالها من خصوصية في كلّ عمل شعري، هي التي تستدعي الرمز القديم، لكي تجد فيه التفريغ الكلي، لما تحمل من عاطفة أو فكرة شعورية، وذلك عندما يكون الرمز المستخدم قديمًا، وهي التي تضفي على اللفظة طابعًا رمزيًا، بأن تركز فيها شحنتها العاطفية، أو الفكرية الشعورية ، وذلك عندما يكون الرمز المستخدم جديدًا".[19]

لقد سار النقد العربي الحديث في تقسيمه للرمز، وفق التقسيم الغربي، الذي يقسّم الرمز إلى: خاص وطبيعي وتراثي، فالأول يأتي به الشاعر أصالة دون أن يسبقه إليه غيره، ومن أبرز خصائصه الغموض الذي يكتنفه، فيحوّل بعض الشعر الرمزي إلى طلاسم يصعب حلّها، وفك أسرارها ، أمّا الثاني، فيمتزج بالسابق كثيرًا، إذ يتم فيه توحيد الذات بالعالم، وا لتعبير عن دلالات

15 – الرمزية والأدب العربي الحديث ، أنطوان غطاس كرم ، ص : 16 .
16 – الشعر العربي المعاصر ، عز الدين إسماعيل ، ص : 196 .
17 – الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، د. محمد فتوح أحمد ، ص : 191 .
18 – الشعر العربي المعاصر ، عز الدين إسماعيل ، ص : 199 .
19 – المرجع نفسه ، ص : 199 .

التجربة لاستنباط طاقات الرمز، وشحنه بمحولات شعورية وفكرية جديدة، في حين يستمد الرمز الأخير من الأساطير والتاريخ والأدب والدين والقصص الشعبية والتصوّف. [20]

إنّ الشعراء يستمدّون رموزهم من عينات الواقع، ومظاهر الطبيعة ، ومن التاريخ العربي والإسلامي والإنساني، ومن الأساطير القديمة، كما يستمدّونها من التراث الشعبي قديمًا وحديثًا، أضف إلى ذلك أنّ بعض رموزهم مستمدّة من مختلف الديانات السماوية.

أهمية التوظيف الرمزي:

لا يختلف اثنان في أنّ الشعر الحديث يعتمد على الرموز، ويباهي بها ، وما أجمل الرمز أداة للتفاهم والإيحاء، إنّه روح اللغة الناطق بما يعجز عنه لسانها، ولكنّ الرمز هو غير اللغز ، فاللغز لا يفهم ولا يوحي، أمّا الرمز، فإنّك تفهم من إيماءاته، أضعاف ما تفهم من كلمته، فقد أتيح لشعرائنا المعاصرين، أن تقع أعينهم على رموز، تتفرع عن أصول دينية وتاريخية وأسطورية وطبيعية.[21]

وتكمن أهمية الرمز في قدرته على المجاورة، والإيحاء بالدلالات الواسعة عن طريق الكلمة الواحدة، لما فيه من ظلال تاريخية وحضارية وحتى نفسية، والشاعر الناجح هو الذي يعرف كيف ينظم هذه الظلال، لصوغ تجربته الراهنة، "فالقوة في استخدام خاص للرمز لا تعتمد على الرمز نفسه، بمقدار ما تعتمد على السياق، لأنّ ذلك هو الذي يجعل منه أداة لنقل المشاعر المصاحبة للموقف ، وتحديد أبعاده النفسية".[22]

"ويعدّ الرمز من أكثر الوسائل الفنية انتشارًا في التشكيل الصوري للقصيدة العربية المعاصرة، فهو يتيح للشاعر تجسيد رؤيا، هو يمنحها شكلًا حيًّا وملموسًا، ويعطي فرصة لتأمل شيء آخر وراء النص، فالرمز هو قبل كل شيء، معنى خفي وإيحاء، إنّه اللغة التي تبدأ، حين تنتهي لغة القصيدة، لذا فإنّ التصوير بالرمز هو: تقرير للقضايا، وتسجيل للأحداث، كونه أول قيمة شعورية مباشرة، تنبع من تجربة الشاعر، لتحدد رؤيته الشعرية، بوساطة الصور الناتجة عنه". [23]

ولو بحثنا في سبب لجوء الشاعر ، إلى توظيف الرمز في تشكيل صورته ، لوجدنا أنّه مرغم على ذلك ، بسبب وجود عوائق اجتماعية وأخلاقية ، فضلًا عن الخوف والحياء ، تحول دون اللجوء إلى التعبير مباشرة عن رغباته وأحاسيسه ، أي أنّ الشاعر

20 – تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ، نعيم اليافي ، ص : 289 .

21 – دلالة الرمز الديني الأحادي المركب في شعر الفزاني مهاد وتطبيق ، آمال أبو شويرب ، ص : 45 .

22 – الرمز الشعري عند مصطفى محمد الغماري ، د. نور محمد ، ص : 72 .

23 – التصوير الرمزي في شعر يحيى السماوي ، محمد فليح الجبوري – علي دخن ، ص : 5 .

يعمد إلى الرمز بصورة طبيعية وقسرية في آن واحدٍ ، فيظهر رمزه كمظهر الثورة على الوضوح الكلاسيكي العادي ، الذي يشوبه الصدق ، وعدم الافتعال . [24]

وتكمن جمالية الرمز في تشكيل الصورة الشعرية ، إذا كان نابعًا من حاجة القصيدة إلى تلك الرموز ، وما تملكه هذه الرموز ، من مجال درامي أسطوري ، يتفاعل مع تجربة الشاعر المعاصر ، لكي يكون أكثر جمالًا وتأثيرًا ، حتى يتنفس في القصيدة كلها ، ويمتدّ فيها كاشفًا عن رؤية الشاعر ، ويكون أداة لنقل المشاعر المصاحبة للموقف ، وتحديد أبعاده النفسية .

وقد تنوّعت الرموز ، وتشعّبت مصادرها ، وطريقة تناولها ، وليس مجال البحث في هذه الدراسة ، استقصاء تلك التشعّبات وتفريعاتها ، وإنّما نكتفي بدراسة الظاهرة في النصوص التي تميّزت ، في تشكيل صورها باستخدام الرمز ، بصورةٍ عمّقت من فاعلية الصور التي شكّلتها .

وقد لجأ شعراء الشعر الليبي ، إلى مجموعة من الرموز ، يجسدون من خلالها مشاعر الطموح والقلق والمعاناة ، في سبيل ارتياد تلك الآفاق المجهولة ، في كل جوانب الحياة ، وكانت النماذج الرمزية بمثابة معادل موضوعي لهذه المشاعر والعواطف ، وذلك عن طريق تجسيدها ، في شخصية أو موقف أو حدث ، كون المعادل الموضوعي ، هو السبيل للتعبير عن العاطفة في شكل فني ، أي يخلق مجموعة من الأشياء والمواقف ، أو الأحداث أو الرموز ، تكون معادلًا موضوعيًا ، أو قالبًا للعواطف . [25]

وبهذه الطريقة يتجنب الشاعر التعبير عن عواطفه بشكل مباشر ، بل يضفي على عمله الشعري الموضوعية ، عن طريق الرمز والإيحاء والتأثير ، وهكذا وضع شعراء الشعر الليبي أيديهم ، على منجم عطاؤه لا ينفذ ، وقدرته لا متناهية ، على بعث الإيحاءات، وتتميز بقدرتها على التأثير في نفوس الجماهير ووجدانهم ، حيث تعيش هذه المعطيات التراثية في وجدان الناس وأعماقهم ، وتحفّ بها هالة من القداسة والإكبار ، لأنّها تمثّل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري والوجداني والنفسي ، ومن ثمّ فالشاعر الليبي يتخذ من معطيات هذا التراث الثري رموزه ، التي من خلالها يستطيع أن يعبّر عن قضايا حاضره السياسية والاجتماعية ، وهمومه الذاتية ، مضيفًا على تجربته نوعًا من الثراء والأصالة .

وهنا لابدّ من وقفة إزاء التفاعل الحضاري ، الذي تمثل في الالتقاء بين الشرق والغرب ، في مطلع العصر الحديث ، ذلك الالتقاء الذي كانت من ثمراته ، هذه اليقظة القومية الشاملة ، التي سرت في البلدان العربية ، فأشعرتها بمكانها المتخلف المتأخر ،

24 – المرجع نفسه ، ص : 6 .

25 – ينظر النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، حديثه عن المعادل الموضوعي ، ص : 175 – 193 .

وحفّزتها إلى النهضة والانبعاث ، بعد قرون طويلة ، عاشتها الشخصية العربية في ظلام دامس متواصل ، مفصولة عن تراثها العريق ، محجوبة عن الانفتاح على الحركات الحضارية في البلدان الأخرى .[26]

"خصوصًا وأن الشعر في ليبيا سارع بشقّ طريقه ، ليدخل في مرحلة من مراحل النضج الفنّي ، على يد شعرائه وليتبوأ مكانه ، ويخرج إلى حيز الوجود ، وحينئذ سوف يجد فيه المنصف لبنة جديدة في إقامة صرحٍ عالٍ للشعر العربي " . [27]

الرموز الدينية التاريخية:

يمثّل التراث الديني ، مصدرًا سخيًا من مصادر الإلهام الشعري ، إذ يستمدّ منه الشعراء نماذجًا وموضوعات وصور أدبية ، فأخذوا ينهلوا من التراث الديني ، وما يتصل به من شخصيات سلبية كانت أو إيجابية في الشعر ، وجعلها مصدرًا أساسًا ، للتعبير من خلالها عن جوانب من التجارب الشخصية ، فكثيرًا ما كان توظيف الرمز الديني على صورة جزئية ، أو إشارة في ضمن المستوى الدلالي للنص الذي ترد فيه . [28]

إنّ للرموز الدينية التاريخية أهمّية كبيرة ، لارتباطها بأحداث ومواقف تختصر الكثير ممّا لا يمكن التعبير عنه بطريقة تصريحية ، ولذلك يصبح استدعاؤها ضرورة تثري المتن الشعري ، ذلك أنّ عناصر التراث ومعطياته ، لها القدرة على الإيحاء بأحاسيس لا تنضب ، لعيشها في أعماق الناس ، فتحفّ بهالة من الإكبار والقداسة ، لأنّها الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري والوجداني والنفسي ، ومن ثمّ فإنّ الشاعر حين يتوسل إلى إيصال الأبعاد النفسية والشعورية لرؤيته الشعرية ، عبر جسور من معطيات التراث ، فإنّه يتوسل إلى ذلك بأكثر الوسائل فاعلية ، وقدرة على التأثير والنفاذ . [29]

والرموز الدينية التاريخية ، تتداخل بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الأخر ، فكثيرًا ما تكون الرموز الدينية رموز تاريخية ، كما أنّ الرموز التاريخية رموز دينية ، فمن هنا يختار الشاعر من أحداث التاريخ ورموزه ، ما يوافق طبيعة القضايا والهموم التي أراد نقلها للمتلقي ، وقد تختلف الشخصيات الدينية والتاريخية المستحضرة ، باختلاف الظروف التي يمر بها الشاعر ، وجعلها خلفية للموقف الشعوري الذي يعبّر عنه ، واستوحى من رمزيتها ، صورًا طافحة بالسمو والقداسة والجلال ، ليضفي على مواقفه الحاضرة ، رحابًا تمدّه بدلالات رحبة .

26 – رفيق شاعر الوطن ، خليفة محمد التليسي ، ص : 12 – 13 .

27 – الشعر والشعراء في ليبيا ، محمد الصادق عفيفي ، ص : 67 .

28 – التصوير الرمزي في شعر يحيى السماوي ، محمد الجبوري – علي دخن ، ص : 14 .

29 – الرمز الشعري عند مصطفى محمد الغماري ، نور محمد ، ص : 72 – 73 .

لقد شكّل التراث الديني مصدرًا من أهم المصادر التي اتّكأ عليها الشعر لتطوير أدواته التعبيرية ، وإثراء طاقاته الإيحائية ، وبناء صوره ورموزه الشعرية ، ومن أجل تحقيق نوع من التواصل مع الجماهير التي تختزل ذاكرتها التاريخية ، معطيات التراث وتتفاعل وجدانيًا مع مفرداته المتعددة ، التي تشكل جانبًا كبيرًا من تكوينها الفكري والنفسي .[30]

ومن المؤكد أنّ رمزية الشعر الليبي الحديث ، لم تعد تلك الرمزية القائمة على الاستعارة والمجاز والكناية ، وأنواع البلاغة الأخرى، بل أنّها أصبحت تستند إلى أدوات فنية راقية لها دلالاتها ، وأبعادها الخاصة .

وقد وعى الشعراء طبيعة العصر وروحه ، فراحوا يستلهمون الرموز الحقيقية ، وأدركوا تفاعلها مع غيرها ، في داخل سياق لغوي، قادرة على منح بعضها البعض دلالات وفاعليات خاصة ، سواءً كانت تلك الرموز دينية أو تاريخية ، أو أسطورية أو طبيعية ، وستقتصر الدراسة على الرموز الدينية في الشعر الليبي المعاصر .

واستلهم الشاعر الليبي من التراث الديني التاريخي ، واستقى مادته منه ، إذ يعدّ هذا التراث رافدًا مهمًّا ، من روافد التجربة الشعرية لديه ، فإذا يعدّ الموروث الديني مصدرًا أساسيًا من المصادر التي لجأ إليها الشعراء الليبيون في بناء قصائدهم ، إذ استرفدوا بعض شخصياته ، واستدعوا قصصه الثرية ، ووظفوها توظيفًا فنّيًا ، بغرض التخفيف من حدّة التجريد في الفكرة الحاضرة ، فيستخدم الشاعر رموزًا من التراث الديني ، والشخصيات الدينية مثل توظيف :

طوفان نوح عليه السلام:

في الواقع أنّ التوحيد والعبودية هي أساس دعوة نوح – عليه السلام – في القرآن الكريم ، وتعتبر قصة نوح من القصص التي تتميز بالإثارة ، فلمّا لم يفلح نوح في استجابة قومه له ، عندما دعاهم إلى سبيل الرشاد ، دعا ربّه أن يسلط على قومه العذاب ، فكان أن استجاب له ربّه ، فأرسل عليهم الطوفان ، ولم ينج من قومه إلّا من ركب معه السفينة ، فهذه القصة غنية بالإيحاءات الفنية ، ممّا يجعلها تقفز إلى واجهة التدال في النص الشعري ، يقول بن زكري :[31]

يَا نَبِيَّ الجَمَالِ أَصبَحَ دَمعِي مُرسَلًا فِي هَوَاكَ بِالبَيِّنَاتِ

وَنُوَاحِي يُورِيكَ طُوفَانَ نُوحٍ إِنَّمَا فَاضَ مِن لَظَى زَفَرَاتِي

أغرَقَت عَبرَتِي مَنَامِي وَلَ كِنَّ سُهَادِي بَاقٍ بِقَيدِ الحَيَاةِ

30 – الشعر الحديث في ليبيا ، عوض محمد الصالح ، ص : 482 .

31 – ديوان مصطفى بن زكري الطرابلسي ، تحقيق : علي مصطفى المصراتي ، ص : 63 .

وكما نلاحظ في النص الشعري، فإنّ الشاعر يستحضر قصة الطوفان، وكيف أنّ النّاس كانوا يستنجدون بنوح – عليه السلام – ليخلّصهم من الغرق، فاستحضار هذا النص قد يكون متوقعًا لما حلّ بالشاعر من آلام وفراق وهجرة، وكما أغرق الطوفان الأرض، كذلك أغرقت عبراته منامه، إنّها أحلامه وآماله في الحياة التي غرقت مع المنام، ولم يتبق له إلّا السهاد والأرق طوال حياته الباقية .

ونجد الشاعر نفسه يتناول الطوفان بشيء من الإعجاب والانبهار ، فالطوفان بداية لخلق أرض موعودة جديدة ، ولابدّ من الإعجاب بهذه الأرض النقية ، والإيمان والتصديق بجمالها وطبيعتها ، بعد أن طهّرها الطوفان ، يقول بن زكري : [32]

أُغرِقتُ بِالطوفَانِ ناظر مغرم بِجمَالِ وجهك مؤمنٌ ومصدّق

فالشاعر ينظر إلى حبيبته بتنوعات نفسية متباينة ، فهو قد غرق في طوفانها المدمّر ، إلّا أنّها منحته الحياة ، والأرض الجديدة ، وهو مؤمن إيمان أصحاب نوح بالخلاص على يديه .

وعندما يستحضر نوح كرمز معاصر ، وكتعبير عن واقعٍ معاشٍ ، ينقلنا النص إلى معاناة الكلمة الهادفة الملتزمة ، يقول عبد المجيد القمودي [33]

صَفَعُوا وَجهِي وَقَالُوا :

أَتُمَارِي اللهَ فِيمَا شَاءَ يَا هَذَا

أَتَبغِي أَن تَحُلَّ اللّعَنَاتُ

عِندَمَا حَاوَلتُ أن أَصنعَ مِن حَرفِي سَفِينَة مِثلَ نُوحٍ

عِندَمَا أحسَستُ بِالطوفَانِ آتِ

يستعيد النص سفينة نوح كرمز للخلاص، ولكنّ السفينة هنا ليست من الخشب، إنّها من الكلمات، ممّا يمنح الشعر دور المخلّص والمنقذ، ففعل نوح الرئيس، يتمثل في أنّه أدرك أنّ الطوفان آت لا محالة، فبنى سفينة النجاة.

ولكن الدلالة الرمزية للطوفان، ذات أهمية خاصة، لأنّ موضوع الطوفان يعتبره الكثيرون واحدًا من أساسيات أساطير الخلق المبكرة جدًا، عند مختلف الشعوب، إلّا أنّ النص ينقلنا إلى الاختلاف بين ردّ فعل قوم نوح، الذين اكتفوا بالنظر والاستهزاء، من نوح وهو يصنع سفينته، وبين قوم الشاعر الذين ضربوا على يديه، ومنعوه من أن يسوي حرفه المنقذ، ممّا يفتح النص على معاني

32 – المصدر نفسه ، ص : 96 .

33 – قصائد بين يدي وطني ، عبد المجيد القمودي صالح ، ص : 113 .

الحيرة والترقب، لهذا الطوفان القادم، علّه يخلق وضعًا جديدًا، تجد فيه هذه الحروف ما يرفعها إلى أعلى، لتعانق أفق حرية التعبير والتغيير.

وقد تتحول الدلالة الرمزية للطوفان، إلى رمز للفقد وضياع الحلم، حلم كان قريب المنال، يتراءى في الأفق، يقول على الفزاني:[34]

يتراءى الأمس حلمًا عبقريًا في المجال

موسم الفقدان هذا ، وطواحين تدور

نقمة التاريخ وطوفان المذلة

أغرق الحرية السمراء في الشرق فآه

مات " نوح " من يقي سمر البذار

محنة الطوفان خانت عشتروت

عاشقيها .. فإذا الأرض دمار وذبول

وإذا أنتَ على الدرب صريع

يقلب الشاعر التناص، والتعامل مع النص القرآني، ويحدث تعارضًا بين ما في النص الحاضر " الشعر "، وواقع النص الغائب "القرآن "، فواقع النص القرآني ، يشير إلى العبرة العظيمة التي تمثل في دعوة نوح – عليه السلام –، والجوانب الإيجابية لهذه الدعوة، ولكن النص الشعري، يشير إلى رفض الشاعر لدعوة نوح والهجرة معه، ويتشبث بالبقاء في أرضه، مهما كانت النتيجة، حتى لو كانت أرضه موعدًا للقيامة.

تظافر الرموز:

إنّ أهمية الرموز الدينية، تكمن في حمولتها الإيحائية التي تصلح لكثير من أوجه التعبير عن الحاضر، باستحضار الماضي، فيصبح النص ذو فاعلية مزدوجة، ففي الوقت الذي يربط فيه النص بذاكرته الثقافية، فهو ينغرس في لحظته التاريخية، فيغدو الرمز قوة كامنة تربط عمل الشاعر بأعمال أسلافه، باعتبار الإنسان قيمة ثقافية ونفسية، وثيقة الصلة بصور الماضي ونماذجه العليا.[35]

34 – ديوان الطوفان آت ، علي الفزاني ، ص : 72 – 78 .

35 – توظيف النص الديني في الشعر العربي القديم شعر العصر العباسي الأول نموذجًا ، نوير با جابر ، ص : 97 .

ولذا قد نجد الشاعر يحشد عديد الرموز الدينية، حينما يكون المصاب جلل، وأي مصاب أعظم من تسليم الوطن للمحتل البغيض، والرضا بالحكم تحت ظله، والانصياع لأوامره، والرضوخ لطلباته، إنّ من يفعل ذلك، يفعل أي شيء كجرائم قتل الأنبياء، يقول محمد وريث: [36]

ومَا عَاد فيهم سوى صاغرٍ

يُصعّرُ خدهُ للأجنبي

ولو كان فيهم يسوعُ استجار لما تركوه

وخفّوا سراعًا له قبل أعدائه صلبوه

ولو جاءهم صالحٌ من جديدٍ لكانوا

وناقته عقروه

فإن صِحتَ أين بنو يعرب

رجالًا كما ينبغي أن يكون الرجال أشداءَ في الكر والفر

قيل فنوا منذُ عهدِ النبي

يدين النص الاستسلام والخنوع للمحتل، ويصوّره في أبشع صورة في الوعي الجمعي لأبناء الوطن، فالنص الشعري في تعامله مع الرمز الديني "يسوع – صالح – النبي محمد" قد يقلب معناه الأصلي، وفقًا لما يخدم الرؤية العامة في النص، وها هنا يحوّل النص دلالة الرمز من السلبية إلى الإيجابية، من الواقع الماثل إلى المتخيل الآتي، من رمز منبثق من صلب المجتمع، فلا تغيير إلّا من داخل المجتمع، وبقوة مناضليه.

إنّ الشاعر يستحضر الرمز الديني، صارخًا في بني قومه، مستنهضًا هممهم، ليثوروا في وجه المحتل وأعوانه، هؤلاء الأعوان الذين رضوا بالصغارة والذلة والمهانة، تحت حكم الغزاة، وباعوا الوطن بثمن بخس زهيد، لابدّ من الثورة عليهم، والخروج من تحت عباءتهم.

36 – ديوان الحب ما منع الكلام ، محمد أحمد وريث ، ص : 23 – 26 .

قصة آدم عليه السلام :

قصة آدم تعدّ رمزًا دينيًا، لبداية عذاب الإنسان وكدحه في العالم الأرضي، بعد أن أغواه الشيطان، وأخرجه من الجنة، إنّها بداية مسيرة الصراع الأزلي بين الإنسان والشيطان، يقول إدريس بن الطيب: [37]

لَعنَةُ الشيطَانِ فِي أَعمَاقِنَا مُنذُ الخَطِيئة

هِيَ ذِي تَكبُرُ فِي ضُعفِ البَصَر

كَي تُوَارِي كُلَّ دُنيَانَا المضِيئة

تصبح خطيئة آدم رمزًا لتناسل الخطايا المستمر، وتصبح لعنة الشيطان لعنات متكررة، لا تفتأ في التعمق والتضخم، لتتحول إلى عتمة وظلام منتشر، تتوارى خلفه كلّ الملامح المشرقة.

هكذا نجد النص، يحمل حزنًا نفسيًا عميقًا، يستمد شرعيته، من حزن لحظة الخطيئة الأولى، التي تتمظهر عبر الاستحضار الضمني لخطيئة آدم، وذلك بحضور لازمين لها: الخطيئة والشيطان.

ويخرج علينا الشاعر إبراهيم الهوني في شعره، بنوع طريف من القصة الرمزية، وبوادر من تلك الرحلات الخيالية إلى السماء حينًا، كما في رحلة آدم السماوية، وإلى العالم الآخر حينًا، كما في رحلة الموت، وهي رحلات تذكرنا بالمسرحية الإلهية لدانتي، ورسالة الغفران لأبي علاء المعري.

وقد يؤخذ عليهما شيء من جهة الفن القصصي، إلّا أنّهما بغير شك مغامرة موفقة في الرمزية الدينية، وهما رحلتان يستشف الشاعر من ورائهما بعض أسرار الحياة، وهذا الاتجاه في الرحلات الرمزية الدينية، يؤكد لنا تطلّع الشاعر في رحلته إلى السماء، وتقليب وجهه في أكنافها، وحنينه إلى هذا العالم العلوي، عالم الطهر والخير والجمال، حيث يلتقي بأبيه آدم ، وأمه حواء.

وأحال أنّ الشاعر، قد لقى من عنت الأيام وتصريفها، ما جعل خاطر الموت يراوده، وهواجس الفناء تعدو عليه، حتى أنّه لينطلق من الدنيا إلى الآخرة، ومن ظهر الأرض إلى باطنها، حيث حساب الملكين، ومستقر الأجساد، لا فزع ولا اضطراب، كأنّه في موعد حبيب إلى النفس.

ومع أنّ هذه الرحلة الرمزية، كان طابعها النقد، فإنّ الشاعر لم يحثنا فيها، عن فلسفة الموت كأبي العلاء مثلًا في قصيدته: "غير مجدٍ"، وعمّا ينقمه من الحياة التي ستنتهي على أي حال، كما في قصيدة إبراهيم المازني: "يملّ الفتى طول الحياة "، وعن خوالج

37 – تخطيطات على رأس شاعر ، إدريس بن الطيب ، ص : 53 .

النفس في هذا العالم الموحش، وعن البواعث التي تدفع بالمرء، إلى أن ينزع إلى خلة الرياء العريق، في أبناء آدم، فيستفظع هذه الخوالج، ويرى أنّ في ذلك تنغيصًا له، وهو لذلك يحاول أن يعزي نفسه، بأنّ هناك من سبقه إلى القبر، وهناك من سيلحقه، وبأنّ هناك تجددًا في الحياة، وخلودًا في الدار الباقية، ومن التعلق بأهداب الحياة، انبثقت البواعث الكامنة، التي تسوق الإنسان إلى أنّ يفكر في تخليد ذكره في نسله. [38]

وهو طويلة تصل إلى قرابة السبعين بيتًا ، يقول منها: [39]

رجعت إلى أصل الخلائق باحثًا لكي أهتدي منه إلى منبع النبل

فأرهفت للزوجين سمعي لعلّني سأسمع ما أجلو به حيرة العقل

فقال لها : يا أمّ نسلي ، إنّني رأيت عقول الناس تحتاج للصقل

فقد قال لي : الأملاك إنّ حياتهم تسير سريعًا كلّ يوم إلى الهزل

وقالوا : لقد عاثوا فسادًا بأرضهم وأصبح خير الناس يوصف بالبخل

فقالت له حواء : مهلًا فإنّهم بنوك وأبنائي ولا ذنب للنسل

فلو يا أبي شاهدت يومًا فعالهم تبرأت منهم في الحرام وفي الحلّ

ولو يا أبي شاهدتهم لوجدتهم طغوا وبغوا واستبدلوا العلم بالجهل

وصار لديهم صاحب العلم ظالمًا وذو الظلم يدعى بينهم من ذوي العدل

وإنّ الذي بلغت عنهم حقيقة وما هو إلّا بعض بعض من الكلّ

إنّ نجاح الرمز الديني يرجع في الأساس، إلى مقدرة الشاعر على استيعابه، والإقناع به، حتى يصبح بعضًا من مشاعره وأخيلته، وباستطاعة الشاعر الموهوب أنّ ينهل من عالم الرموز، إذا استطاع أنّ يخلق من الرمز الديني قيمًا فنيةً جديدة، لم نتمثّلها حتى تصبح جزءًا من أصالتنا.

قابيل وهابيل:

من الرموز ذات الارتباط بالمرجعية الدينية، التي يعتمدها الشعراء في تشكيل صور شعرية، ذات إيحاء جمالي، تعزّز دلالة الموقف المراد تصويره للمتلقي، من خلال ازدواج رمزين "خير وشر"، يردان معًا في القصيدة، حيث تستمدّ الصورة جماليتها، من المفارقة

38 – ينظر الشعر والشعراء في ليبيا ، محمد الصادق عفيفي ، ص : 72 – 75 .

39 – المرجع نفسه ، 153 – 155 ، وذكر المؤلف أنّ ديوان الشاعر تحت الطبع .

التضادية التي يوجدها الشاعر، وفي الوقت نفسه، تشكّل أمرًا ينسجم مع طبيعة السياق، الذي يتأسس على رؤيا مفارقة، تختزلها بنية الصراع الوجودي، القائم بين رمزين: أحدهما ذا بعد إيجابي، متمثّل بهابيل، الذي يوظّفه الشاعر رمزًا للتضحية، وقابيل الرمز الذي يمثّل العدوان والظلم والخيانة، رمزًا حلّت عليه اللعنة، لتمرّده على إرادة الله – عزّ وجل –، فيتّخذه الشاعر رمزًا لكلّ سفّاحٍ ومعتدٍ، فيوظف الشاعر الرمزين معًا، ليرسم صورة مأسوية لأبناء بلده، من خلال توظيف تقنيتين في تشكيل صورته الأولى: تقنية التضاد التي تعمّق دلالة المأساة، والثانية : تقنية الرمز في قابيل وهابيل، التي توضّح الصراع المحتّم، ما بين الجاني والضحية.

ولذا نجد رمز قابيل لا يقف عند ابن آدم الذي نعرفه، ولكن يتعداه إلى قابيل العصر الذي امتهن حرفة القتل، وسلّط كلّ ما يملك من وسائل الدمار، لقتل الحريات، ومصادرة الأفكار، فهو يرمز إلى المستعمر الذي عاث فسادًا في الأرض، يقول على الفزاني: [40]

قابيل قتل رجلًا واحدًا فقط

من أجل المرآة الوحيدة في العالم

قابيل وارى جثة أخيه

في قبر دافئ

في القرن العشرين الدموي

يقتل الطاغية الواحد

ألف إنسان في ساعة واحدة

يمزّقهم إربًا إربًا

يحرقهم

"لقد صوّر الشاعر جريمة قابيل التي تعدّ أول جريمة حدثت على وجه الأرض ، واكتسب من دلالة هذا الرمز المركب، دلالات وأبعاد معاصرة، وهي قضية الشعوب المظلومة من قبل الدول الطاغية في القرن العشرين، حيث نلمس ذلك في الجريمة التي ارتكبتها أمريكا في حق اليابان، وكذلك ما حدث في العراق، وما نشاهده في فلسطين المحتلة اليوم". [41]

40 – ديوان أرقص حافيًا ، على الفزاني ، ص : 57 – 58 .

41 – دلالة الرمز الديني الأحادي والمركب في شعر الفزاني (مهاد وتطبيق) ، آمال أبو شويرب ، ص : 57 .

إنّ قيمة بعض الكلمات الواردة في النص مثل: قابيل وهابيل، تنبع أساسًا من كونها تهيمن على غيرها من المفردات الموجودة في النص ، والبروز الذي يفرضه وجودها على انتباه المتلقي ، فهي قد وجدت ، ولكن من حيث إنّها دلالات تجربة حضارية ، ورؤية معاصرة ذات أبعاد دلالية مهمة .

وهذه الرؤية المعاصرة تنطلق أساسًا من كون الإنسان الحديث ، أصبح هيكلًا أجوف ، مفرغًا من قيمه الروحية التي ردمتها الحضارة المادية الحديثة ، فالتمزّق في المجتمع الإنساني بلغ أوجه ، ودماء الأخوة والنسب أصبحت في شرايينها ، طافحة بكل النفايات ، فجسّدت قصة قابيل هذا التمزّق ، ولخّصت الجريمة كلّها : جريمة الإنسان الأولى التي امتدت عبر آلاف السنين ، لتلبس أقنعة شتى . [42]

فالجريمة أصبحت جريمتين ، القتل تحوّل تمزيقًا ، والوضع صار أكثر مأساوية ، ولكن قابيل يدرك خطأ فعله بعد فوات الأوان ، وبعد أن تكون يداه ، قد تلوثت بدماء أخيه ، فتكون مواراة جثة أخيه ، هي علامة ندمه ، إلّا أنّ أحفاده لم يبدؤا ندمهم بعد .

يوسف وأخوته:

إنّ استدعاء بعض الشخصيات الدينية ، وتوظيفها في نص معاصر يهدف بالأساس ، إلى معالجة قضايا ، تتعلق بالحرف والكلمة والأدب بشكل عام ، إذ نجد الشعراء الليبيين من وظّف شخصيات دينية مثل يوسف – عليه السلام – ، مصبغين عليها الدلالة الدينية التاريخية الحقيقية ، التي كانت تكتنفها ، وأحيانًا تستدعي الشخصية الدينية ، وتفرغها من محتواها الرمزي الديني ، وتشحن بدلالة مغايرة تمامًا ، يعمد إليها الشاعر قصد تعرية الواقع ، وإجراء مقارنة بين البارحة واليوم ، على أنّه من الملحوظ أنّ الشخصيات التي حظيت بالقدر الأعظم من اهتمام الشعراء الليبيين ، هي تلك التي ارتبطت بقضايا معينة ، وأصبحت في التراث رمزًا لتلك القضايا وعناوين لها .

ويعتبر يوسف – عليه السلام – رمزًا للجمال ، ورمزًا لكمال العقل وقوة الحدس ، فقد ارتبطت شهرته ، بقدرته على تفسير الأحلام ، كما أنّ موهبته هذه ، هي التي أعطته منزلة خاصة عند العزيز ، عندما فسّر له حلم السنوات السبع العجاف ، التي يستحضرها النص في صورة رمزية ، يقول علي صدقي عبد القادر : [43]

لكن أنا أقسمتُ أن أموتَ فوق المئذنة

عبر سِنِي الموتِ المحزنة

42 – الرمز في الشعر الجزائري المعاصر ، فريد تابتي ، ص : 16 .

43 – ديوان الأعمال الشعرية الكاملة ، علي صدقي عبد القادر ، ص : 297 .

سِنِي يوسفَ العجاف

كانت لها نهاية المطاف

يستحضر النص حلم يوسف ، في تفسيره لسنوات القحط السبعة ، كدلالة على انصرام العسر مهما طال أمده ، وتبرز قرائن التحدي في النص عبر استحضار القسم كدلالة على الإصرار ، والمئذنة كرمز للسمو وارتفاع الصوت ، ممّا يجعل النص الشعري يراهن على التحدي على رغم كلّ الصعاب ، فإنّ الكلمة لابدّ أن تنتصر .

فعندما ذكر الشاعر السنين العجاف ، فإنّنا نرى فيها سنين يوسف – عليه السلام – ، وهي سنين الجوع والفقر ، وقد شبهها الشاعر بالسنين التي عاشتها الأمة العربية ، وهي تحت حكم الأعداء الذين قاموا بالمؤامرات والمكائد والدسائس ، للنيل منها ، وهي ساكنة لا تتحرك .

فالشاعر قد أجاد التقنّع بشخصية يوسف وقصته ورؤياه ، محاولًا منه التعبير عن رفض الواقع الأليم ، والظلم الذي تعانيه الأمة العربية ، فيعرّج النص في علاقته بالراهن ، على رمز أخوة يوسف الذين أرادوا أن يقتلوه ، ليصبحوا دلالة الطعن في الظهر من طرف الإخوة في الدم ، فينقل النص فعل إخوة يوسف إلى دلالة الخيانات العربية ، يقول إدريس بن الطيب : [44]

إخوةُ يوسفَ العصرَ بقاعة المؤامرات قدّموه

بالجحان

تكاثرَ الباعةُ والعبيد

وعيناكَ لن تبيضَّ يا يعقوب

وظّف الشاعر التراث القرآني ، كوسيلة من وسائل التأثير والإقناع على المتلقي ، فاستخدم ما يتلائم مع تجربته الشعرية باستحضار قصة النبي يوسف وأخوته الذين تخلوا عنه ، وتآمروا عليه ، وألقوه في غياهب الجب ، مشبهًا إياه بحال الفلسطينيين بإخوانهم العرب ، فيغدو الفلسطيني هنا يوسف ، ويغدو العرب إخوانه الذين اتهموا الذئب بما اقترفته أيديهم ، فالجب (القاعة) هنا اكتسب دلالة جديدة ، فهو يعني الخيانة والمؤامرة والجبن والاستكانة ، إنّه داء العصر المستشري في الأمة العربية ، فإذا كان يوسف نجى من محنته من قبل السيّارة ، وصار وزيرًا ، فإنّ الفلسطيني مازال يعاني إلى الآن في الجب ، ينتظر من يساعده .

44 – تخطيطات على رأس شاعر ، إدريس بن الطيب ، ص : 100 .

وبعد أن عرّج النص على ملامح المؤامرات والخيانات بين الإخوة ، ينفتح النص على إدانة القمع ، ليصبح النبي يوسف رمزًا للمناضل الثوري الذي تطارده المباحث ، وينجح النص في استبدال الرموز القديمة ، بما يعادلها في الحياة الراهنة ، ليمنح للنص بعد الانغراس في المرجعية الدينية المستوحاة ، من دون أن ينسى ارتباطه بالواقع الراهن ، يقول إدريس بن الطيب : [45]

ابنُك يا يعقوبُ لم تعشقه ، لم تسجنه

امرأة العزيز

بل شرطةُ المباحث

فكلُّ أفراد قبيلتي مباحث

السجنُ مثلُ البيع لا خيار

لكنّهُ رآك في المنام تزنُ الرصاص للرجال

رؤياهُ لم تَخِب قبلُ لم تلامس المحال

يوسفُ يا يعقوبُ لم تفتك به الذئاب

لم يمت

يهديكم السلام

إنّ الحقيقة التي لا يمكن دحضها أو التغاضي عنها ، هي أنّ الشاعر لم يجرِ تعديلًا سياقيًا للخطاب القرآني ، بقدر ما استعان به في إثبات حقيقة واقعه ، أي أنّه سلب المعنى السياقيّ القرآني ، ليضيفه إلى النص الشعري ، ولكن على الرغم من ذلك ، بقي الارتقاء الفنّي فقيرًا في أبعاده التصويرية ، بيد أنّ كثافة التصوير القرآني ، تمكّنت من النفاذ إلى فاعلية القراءة النصية ، وتنشيط دوره الفنّي الباعث لدلالات الترميز ، المستوحاة من سياق النصوص القرآنية . [46]

عيسى عليه السلام:

عيسى – عليه السلام – من أبرز الرموز التي كانت لها رواج واسع في الشعر الحديث ، فهو شخصية إيجابية ذات موقف المواقف النبيلة التي أوردها الشعراء في دواوينهم ، فهم يستخدمونه تارةً رمزًا للاستقامة ، لما تحمّله من الإيذاء والاضطهاد في حياته،

45 – تخطيطات على رأس شاعر ، إدريس بن الطيب ، ص : 100 .

46 – أثر الترميز الفني في شعر الغزل العذري ، الأنساق – الأبعاد – المستويات ، أسيل ناصر ، ص : 56 .

وتارةً أخرى رمزًا للوطن والبقاء ، وتبرز قضية الصلب ليجسد معاناة عيسى – عليه السلام – ، وعذاباته التي لقيها من بني إسرائيل ، حين أرسل لهم ، فتكمن قيمة التناص ، في العذاب الذي يلاقيه ، وما يقابله من رمزية ماثلة في النص الشعري . [47]

فهو رمز ديني له إشعاع خاص ، باعتباره يحمل دلالات متعددة ، فهو رمز للمعاناة والألم الجسدي ، للتضحية والفداء ، وأخيرًا رمز للحياة بعد الموت ، بما تحمله من معاني الانتصار الإنساني الذي ينبثق من رماد التضحية .

"ارتبط الصليب بالنصرانية ، فأصبح رمزًا لها ، وارتبط الهلال بالإسلام ، فأصبح رمزًا له ، العقل العربي منذ قرون يدرك هذا الرمز ومدلوله ، والشاعر في هذا الموقف لم يتجاوز تكرار الواقع كما يفهمه غيره " . [48]

ولذا نجد الشعراء يتناولون قضية الصلب ، ويلحّون عليها ، يقول علي الخرم : [49]

أُصلبُ كلّ ليلةٍ على جدارِ الصمت

أذوقُ طعمَ الموت

لكنّني أبعثُ من جديد

يرتفعُ النشيد

عبر ظلامِ اليأس والخفوت

الحيُّ لا يموت

يتناول النص قضية الصلب، إنّه صلب الكلمة الفاعلة ليعلو جدار الصمت ، ويطبق على الكلّ ، لكنّ البعث يمنح للكلمة بعد النشيد ، ونكهة انتصار الحياة على الموت ، وبهذا يكون النص قد وفّق في توظيف رمز عيسى ، بما يحمله من معاني غلبة الحياة .

ويتطلب الكشف عن ملامح الرمز ودلالته ، الرجوع قبل ذلك إلى تلمس القرائن التي تشير إلى مصدر الرمز وماهيته ، وهي وإنّ كانت واضحة في الإحالة إلى رمز عيسى ، فإنّها تلزم تتبع نبض الصوت عبر ما يمكن أن يكون سياقًا للقص الشعري ، وربط ذلك بمعالم التجربة الشعرية ، وما تحمله من قرائن تحيل إلى مصادر أخرى ، تفتح مدى القصيدة ، وتوصلها بتجارب عدة ، تغني بلا شك دلالات الرمز ، وتتشابك معها بما تؤمي إليه من حالات إنسانية ، لا تقف عند حد معين ، بحيث تتداخل الحركة الباطنة للقصيدة بين الماضي والحاضر ، وعاء لعدة تجارب إنسانية ، يتم بعثها واستحضارها ، حية نابضة بالحياة ، أو المأساة .

47 – الرمز وتطوره الدلالي في الشعر الفلسطيني المقاوم ، د. عزت إبراهيمي ، ص : 148 – 149 .

48 – الترميز في شعر عبد الوهاب البياتي ، حسن عبد الخاقاني ، ص : 256 .

49 – ديوان الجوع في مواسم الحصاد ، علي الخرم ، ص : 43 .

وهكذا وجد الشاعر الليبي في الرموز الدينية ، رحابة وقدرة على استيعاب تجاربه الشعورية والفكرية ، بالإضافة إلى قوة إيحائها وعمق تأثيرها في نفس المتلقي .

الخاتمة:

ممّا لا شك فيه ، إنّ توظيف الرمز الديني عند الشعراء الليبيين المعاصرين ، هو غيره عند الشعراء المتقدمين ، وذلك يعود لشيوع هذه التقنية عند المبدعين بشكل عام ، والشعراء بشكل خاص ، وقد شكّلت قصص الأنبياء حيزًا كبيرًا في الشعر الرمزي .

ولذا فلابد من خصوصيات تحتلها التجارب الشعرية لهؤلاء الشعراء ، التي يمكن إيجازها بما يلي :

- اتّخذ الرمز عند الشعراء الليبيين مسالك شتى .
- اختلاف أسباب توظيف الرمز عند الشعراء ، إذ توزعت على عوائق اجتماعية وأخلاقية وسياسية .
- الرمز عند الشعراء الليبيين ، يعدّ معادلًا موضوعيًا لتجربتهم الشعرية .
- يمثّل الرمز الديني الثيمة المركزية في النصوص التي جاءت فيها .
- مثّل توظيف النص الديني الدلالات الإيجابية والسلبية ، في أكثر نصوص الشعراء .
- شيوع ظاهرة التوظيف الرمزي الذي يقوم على استحضار الرموز المتضادة ، وبشكل لافت للنظر ، فالشاعر يجمع بين المتضادين في موضع واحد .
- مثّلت الرموز الدينية عند الشعراء علاقة الحضور والغياب ، ولا سيّما بعد شحنها بطاقات دلالية كبيرة ، يمكن استنتاجها من خلال السياق .
- استثمر الشعراء الدلالات الرمزية التي توفرها الرموز الدينية ، للتعبير عن القضايا السياسية والاجتماعية .
- استخدام الرموز الدينية يعود إلى عمق المخزون الثقافي والإرث الديني لدى الشعراء .
- وجد الشعراء في تلك الرموز ودلالاتها ، متنفسًا عمّا تعانيه البلاد من الأوضاع السائدة في ذلك الوقت ، فكان الشاعر يتقنّع في مواجهة الأوضاع السياسية والاجتماعية .
- يعدّ الرمز الديني من أهم الظواهر الفنية في الشعر الليبي المعاصر ، ووسيلة من وسائل التعبير التي التفت إليها الشعراء الليبيون ، فاهتموا بتوظيفه ، وإغنائه خدمةً لغاياتهم في بلوغ الإتقان الفنّي ، والقدرة على التوصيل والتأثير في المتلقي .

- وتظل القصائد التي تحوي القصص الرمزية الدينية والتاريخية والتراثية ، مؤهلةً لإعادة النظر والقراءة ، واستنطاق نصوصها لاستخراج أسرارها ، ودررها الكامنة .

Summary: Religious symbolism is one of the rich techniques that Libyan poets employ in drawing many poetic images, due to the effective impact of this technique in revolutionizing the creative text, by intensifying these connotations in a narrow and specific verbal space, with the availability of the semantic dimension that opens to fragmentation Interpretation, as the symbol recorded a distinct presence in its poetic space, which is subordinate to the poetic pattern, and took various paths for them, and represented in their poetry an objective equivalent of their poetic experience.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم .

أولًا الكتب :

1. ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر للنشر والتوزيع ، بيروت لبنان .
2. أبو الحسين، أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1979 .
3. أحمد، محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف مصر، الطبعة الثالثة ، 1984 .
4. إسماعيل، عز الدين ، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة للطباعة والنشر، القاهرة مصر.
5. بن الطيب، إدريس، ديوان تخطيطات على رأس شاعر، منشورات الشركة العامة للنشر، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى 1976 .
6. التليسي، محمد خليفة، رفيق شاعر الوطن، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، 1988
7. جابر، نوير با، توظيف النص الديني في الشعر العربي القديم شعر العصر العباسي الأول نموذجًا، النابغة للنشر والتوزيع، القاهرة مصر ، الطبعة الأولى 2014 .
8. الحاو ، إيليا، الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1983 .
9. الخرم، علي، ديوان الجوع في مواسم الحصاد، المنشأة العامة للنشر، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى 1984 .

10.صالح، عبد المجيد القمودي، ديوان قصائد بين يدي وطني، منشورات المنشأة العامة للنشر، طرابلس ليبيا، الطبعة الثانية، 1982 .

11.الصالح، عوض محمد، الشعر الحديث في ليبيا، منشأة المعارف، الإسكندرية مصر، 2002 .

12.عبد القادر، علي صدقي، ديوان الأعمال الشعرية الكاملة، المنشأة العامة للنشر، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى، 1992 .

13.عفيفي، محمد الصادق، الشعر والشعراء في ليبيا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة مصر، 1957 .

14.الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، 2003 .

15.الفزاني، علي ، ديوان أرقص حافيًا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى 1995.

16.الفزاني، علي، ديوان الطوفان آت، المنشأة الشعبية للنشر والإعلام، طرابلس ليبيا، 1981 .

17.القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وأدبه، دار الجيل، بيروت لبنان، الطبعة الخامسة، 1981 .

18.كرم، أنطوان غطاس، الرمزية والأدب العربي الحديث، دار الكشاف، بيروت لبنان.

19.المصراتي، علي مصطفى، ديوان مصطفى بن زكري الطرابلسي، دار لبنان للطباعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1966.

20.ناصر، أسيل، أثر الترميز الفنّي في شعر الغزل العذري، الأنساق الأبعاد المستويات، الرضوان للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى 2016 .

21.هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة مصر .

22.وريث، محمد أحمد، ديوان الحبّ ما منع الكلام، منشورات المنشأة العامة للنشر، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى، 1998 .

23.اليافي، نعيم ، تطوّر الصورة الفنّية في الشعر العربي الحديث، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان .

ثانيًا : الرسائل العلمية .

24.حانوتي، مريم، بنية الرمز في شعر محمد جربوعة، بحث لنيل درجة الماجستير، كلية الآداب جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، الجزائر ، 2016 .

25.سوهيلة، يوسفي، الرمز ودلالته في القصيدة العربية المعاصرة قراءة في الشكل، خليل الحاوي أنموذجًا، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة الجيلالي الجزائر ، 2012 .

26.عبد الخاقاني، حسن، الترميز في شعر عبد الوهاب البياتي، اطروحة دكتوراه، جامعة الكوفة العراق 2006 .

ثالثًا : المجلات العلمية والدوريات .

27.إبراهيمي، عزت، الرمز وتطوّره الدلالي في الشعر الفلسطيني المقاوم، مجلة القسم العربي العدد 24 ، 2017 ، جامعة بنجاب لاهور ، باكستان .

28.أبو شويرب، آمال ، دلالات الرمز الديني الأحادي والمركب في شعر الفزاني (مهاد وتطبيق)، المجلة الجامعة العدد 16، المجلد 2، أبريل 2014 صبراته، جامعة الزاوية .

29.تايتي، فريد، الرمز في الشعر الجزائري المعاصر، مجلة المدونة، العدد السابع 2017 ، جامعة البويرة .

30.الجبوري، محمد، علي، دخن، التصوير الرمزي في شعر يحي السماوي شعر التفعيلة نموذجًا، مجلة آداب ذي قار العدد 12 ديسمبر 2014 ، جامعة ذي قار العراق .

31.محمد، نور ، الرمز الشعري عند مصطفى محمد الغماري، مجلة اللغة، الكتاب الخامس، العدد الثاني ،ديسمبر 2020 .